

المحاضرة السادسة

عناصر المحاضرة

- _مقدمة
- _المذهب المثالي
- _المذهب الواقعي
- _المذهب العملي
- _وقفة نقدية
- _سؤال طبيعة المعرفة

شغل السؤال عن طبيعة المعرفة الإنسانية وحقيقتها العديد من الفلاسفة والباحثين، وحاولوا الإجابة عنه بطرق مختلفة، وذلك ليبيان كيفية العلم بالأشياء، أي كيفية اتصال القوى المدركة لدى الإنسان بموضوعات الإدراك، وعلاقة كل منهما بالأخر.

فهل المعرفة في النهاية ذات طبيعة مثالية يرتبط فيها وجود المعرفة بوجود العارف؟

أم أنها ذات طبيعة واقعية تستقل فيها المعرفة عن العارف؟

أم أنها ذات طبيعة عملية ترتبط بمدى الانتفاع منها؟

هنا نقسم الفلاسفة والباحثون في مسألة طبيعة المعرفة إلى ثلاثة أقسام، هي:

١/ المذهب المثالي،

٢/ المذهب الواقعي،

٣/ المذهب العملي (البراغماتي).

المذهب المثالي (Idealism)

ترجع أصول المثالية على أفلاطون، الذي (اعتقد بوجود عالمين: العالم الحقيقي الذي توجد فيه الأفكار الحقيقية المستقلة والثابتة، والعالم الواقعي الذي هو ظل للعالم الحقيقي).

ويتفق المثاليون في تصورهم لطبيعة المعرفة، وفي اتجاههم العام نحو النظر إلى الأشياء الطبيعية باعتبارها غير مستقلة بنفسها، ولا تقوم بذاتها، وإنما تعتمد في وجودها على العقل أو الذهن. ولذلك، فإن الحقيقة النهائية، تكون في نظرهم ذات طبيعة عقلية أو ذهنية.

وانطلاقاً من نظرتهم الازدواجية للعالم، فإن المثاليين ينظرون نظرة ازدواجية للإنسان أيضاً، أي أنه مكون من عقل ومادة.

وبما أن الإنسان جوهره العقل، وأن الحواس مشكوك في صحتها ودقتها، وأن الأشياء لا معنى لها من غير العقل البشري، إذا فإدراك الإنسان أساسه العقل مستقلاً عن التجارب الحسية.

وكما كانت المعرفة مجردة عن الإدراكات الحسية كلما سمت وارتقت وكانت أكثر ثباتاً وقيماً.

ويقوم المذهب المثالي في المعرفة على أساس أننا (إذا أردنا أن نعرف الواقع أكثر، ونفهم طبيعته وننصر حقيقته بشكل أعمق؛ فلن يكون ذلك بالبحث في العلوم الطبيعية بما فيها من اهتمام بالمادة والحركة والقوة، وإنما يكون بالاتجاه نحو الفكر والعقل، والالتزام بالقوى المثالية والقيم الروحية لدى الإنسان).

وقد ظهر المذهب المثالي في صور شتى، من أهمها: المثالية التقليدية (المفارقة)، والمثالية الذاتية، والمثالية النقدية، والمثالية الموضوعية (المطلقة).

***١ المثالية التقليدية (المفارقة):** مرتبطة بأفلاطون، وتعني: ان هناك وجوداً مثالياً للأشياء، وأن وجود هذه المثل هو وجود مفارق للأشياء الواقعية. وأن الطبيعة الحقة للشيء لا توجد في الظواهر التي تقدمها الحواس، بل توجد في المثل، وبذلك لا يمكن معرفتها إلا عن طريق العقل وحده.

ويميز أفلاطون بين نوعين من المعرفة، المعرفة الظنية: وهي المعرفة بعالم الأشياء المادية التي تأتي إلينا عن طريق الحواس، وتتصف بالتغير وتتعلق بالمظهر، والمعرفة اليقينية: وهي المعرفة بعالم المثل المفارق للمادة، وتأتي إلينا عن طريق العقل، وتتميز بالثبات وترتبط بالحقيقة.

***٢ المثالية الذاتية:** جاءت في العصور الحديثة، وبالتحديد في أواخر القرن ١٧ م، على يد (باركلي) الذي يلخص نظرتهم لطبيعة المعرفة في عبارته المشهورة: (أن يوجد هو: يعني أن يُدرك أو أن يُدرك). إذ يرى أن وجود الشيء هو إدراكه، وأن الشيء ليس له وجود مادي مستقل عن إدراكنا له، وأنكر وجود العالم المادي مستقلاً عن الإدراك.

والحقيقة أن هذه النظرية تلغي المعرفة الإنسانية من ناحية موضوعية بشكل تام، لأنها لا تعترف بموضوعية الفكر والإدراك، ووجود الشيء خارج حدودها.

***٣ المثالية النقدية:** ارتبطت تسميتها في العصر الحديث بعمانويل كانط. والمثالية النقدية نوع خاص من المثالية ترى ضرورة البدء بفحص العقل، ومعرفة حدوده، ومعرفة قدراته قبل الوثوق به والاعتماد عليه واستخدامه في تحصيل المعرفة. ويرى كانط أن (التصورات العقلية تكون فارغة إذا لم ترتبط بالادراكات الحسية، وأن الادراكات الحسية تكون عمياء إذا لم تعتمد على التصورات العقلية. وإذا كانت عملية الإدراك لا تتم إلا بالترابط بين الصور العقلية والمدركات الحسية، فمعنى هذا أننا لا نستطيع أن نعرف إلا ظواهر الأشياء، أما الأشياء ذاتها فلا سبيل لنا لمعرفة، لأن الحواس لا تقدم لنا غلا ما يظهر من الأشياء، والعقل لا يستطيع أن ينفذ من وراء الظواهر ليكشف الواقع الحقيقي.

***٤ المثالية الموضوعية (المطلقة):** ترتبط بالفيلسوف هيغل، الذي أكد ان استخدامنا لنظام المنطق بصورة دقيقة هو الذي سيوصلنا على الفكرة المطلقة. والمثالية المطلقة هي الاتجاه الفلسفي المثالي الذي يذهب إلى أولوية الروح على المادة، ويرى أن المصدر الأول للوجود ليس هو العقل الإنساني الشخصي، وإنما هو العقل الكلي أو الروح المطلقة. وهكذا يتفق هيغل مع المثاليين جميعاً في نظرهم إلى طبيعة المعرفة باعتبارها في النهاية معرفة عقلية أو روحية، وفي نظرهم إلى الواقع باعتباره في النهاية تجسيدا للعقل أو الروح. ومن ثم فلا سبيل على فهمه إلا من خلال العقل، المصدر الوحيد للوجود والمعرفة معاً.

◆ المذهب الواقعي (Realism)

تقوم فكرة المذهب الواقعي على أن مصدر كل الحقائق هو هذا العالم الذي نعيش فيه (عالم الواقع)، أي عالم التجربة والخبرة اليومية، ويعتبر أرسطو ابا للواقعية. ويعود الأصل في تسمية المذهب بالواقعي إلى الأساس الذي قام عليه هذا المذهب، وهو الاعتقاد في المادة. فالحقيقة موجودة في هذا العالم (عالم الأشياء الفيزيقية) ووجودها حقيقي واقعي يقوم على ثلاثة أسس رئيسية، وهي:

- أن هناك عالم له وجود لم يصنعه أو يخلقه الإنسان، ولم يسبقه وجود وأفكار مسبقة
- أن هذا العالم الحقيقي يمكن معرفته بالعقل الحقيقي، سواء بالعقل الإنساني أو الحدس أو التجربة.
- أن هذه المعرفة يمكن أن ترشد وتوجه السلوك الفردي والاجتماعي الضروري للإنسان.

ويرى المذهب الواقعي أن (ماهية المعرفة ليست من جنس الفكر أو الذات العارفة، بل هي من جنس الوجود الخارجي، إذ أن للأعيان الخارجية وجوداً واقعياً مستقلاً عن أي عقل يدركها، وأن العقل إنما يدركها على ما هي عليه بقدر طاقته).

◆ المذهب العملي (Practicalism)

إن المعرفة على مذهب المثاليين أو الواقعيين لا تؤدي بك على عمل تعلمه، أي لا تتضمن سلوكاً معيناً يقوم به الشخص العارف، ومن هنا كان الفلاسفة يفرقون بين الفكر والعمل، فيقولون: إن رجل الفكر قد لا يكون رجلاً عملياً، ورجل العمل قد لا يكون صاحب فكر، إيماناً منهم بأن المعرفة شيء لا يستدعي بالضرورة سلوكاً معيناً في الحياة العملية.

أما المذهب العملي أو البراغماتي فقد (غير النظرة على طبيعة المعرفة، حيث جعل المعرفة أداة للسلوك العملي، أي أن الفكرة من افكارنا هي بمثابة خطة يمكن الاهتداء بها للقيام بعمل معين، والفكرة التي لا تهدي إلى عمل يمكن أدائه ليست فكرة، بل ليست شيئاً على الإطلاق، غلا أن تكون وهماً في رأس صاحبها).

والمذهب البراغماتي يمثل إحدى المدارس الفلسفية والفكرية التي نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية بداية القرن ١٩م، وتتميز البراغماتية بالإصرار على النتائج والمنفعة والعملية كمكونات أساسية للحقيقة. ويعتبر (تشارلز بيرس: ١٨٣٩-١٩١٤) أول من أدخل لفظة براغماتية للفلسفة. وذهب وليم جيمس إلى أن المعرفة العملية هي المقياس لصحة الأشياء، وأن البراغماتية تعني إمكانية البحث المتاحة ضد الوثوقية التعسفية واليقينية الجازمة وادعاء النهائية في الحقيقة.

أما جون ديوي، وهو المنظر الحقيقي للبراغماتية فيرى أن العقل أو التجربة الحسية ليسا أداة للمعرفة، وإنما هما أداة لتطور الحياة وتنميتها، فليس من وظيفة العقل أن يعرف، وإنما تكمن وظيفته في خدمة الحياة، وتكمن آثار المعرفة في مدى إمكانية تطبيقها وتوظيفها عملياً.

◆ وقفة نقدية

-نلاحظ أن المذاهب الثلاثة السابقة ركزت على جانب وأهملت جانباً آخر أو جوانب أخرى تتعلق بطبيعة المعرفة، لأنها نظرت بطريقة تجيزئية للإنسان (العارف) ولموضوع المعرفة، فبعضها اعتد بالعقل وأهمل الواقع، والبعض تشبث بالواقع وجعل العقل لا دور له إلا التصديق على الواقع، والبعض جعل المعرفة الحق ما كنت تحقق منافع مجسدة، ولا عبرة بصحة المعرفة في ذاتها أو مطابقتها للواقع أو يقينيتها العقلية أو لا.

-ولو تأملنا القرآن الكريم لوجدناه يقرر أن للأشياء وجوداً واقعياً مستقلاً عما في ذهن البشري، أدركه الإنسان أم عجز عن إدراكه، وعدم إدراك الإنسان لبعض الأشياء لا يقتضي عدمها.

-أي أنه ليس كل موجود يمكن معرفته، فهناك من الموجودات ما لا سبيل لوسائل المعرفة الإنسانية إلى معرفتها ومن هنا كانت تبعية نظرية المعرفة لنظرية الوجود في القرآن، فما هو موجود لا يتعلق وجوده بمعرفة الإنسان له أو عدمها، فالموجودات أكبر من أن يلم بها أو يحصيها أو يدركها العقل البشري. (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) ولها فإن طبيعة المعرفة عندما نتأمل القرآن نجد أن المعارف ثلاثة أنواع:

١- هناك ما هو فطري: وهو العلم الضروري الذي خلقه الله تعالى مركزاً في فطرة الإنسان ومنه العلم بالبداهيات العقلية وبالله وبالأسماء بقوا تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ {البقرة ٣١}.

٢- علم النبوة: وهو العلم الرباني الذي وصل إلى الإنسان من طريق الوحي: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

٣- المعارف الاكتسابية: وهي المعارف التي يكتسبها الإنسان من الوحي أو الكون أو كليهما بالحس والتجربة والعقل والحدس، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ {٧٨ النحل}.

- ثم أن طبيعة المعرفة تقتضي ميداناً لدراستها وهذا الميدان - وبحسب نصوص القرآن الكريم - إما أن يكون في عالم الغيب وإما أن يكون في عالم الشهادة، وطبيعي أن البحث في عالم الغيب محدود، إذ أعفى الإنسان من الدخول في تفاصيله بحسبان ذلك خارجاً عن نطاق طرائق المعرفة لديه من حس وعقل على وجه التحديد، ويبقى أمامه مصدر الوحي وطريقته ما دام واثقاً من أحقيته في ذلك أما عالم الشهادة فهو الميدان الحقيقي للبحث